مجلة وعي للعلوم الإنسانية
Waai Journal for Hummanities
ISSN: 3104-9125
E-ISSN:3104-9117

مجلة وعي للعلوم الإنسانية

العدد الثالث/ ٢٠٢٦م، الصفحة: ٢١٨٤-٢٢١٣

المرأة الريفية في تونس ومشاركتها في الحركة الوطنية وأثره في تطور الوعي السياسي والاجتماعي داخل المجتمع التونسي (١٩٣٤ــ١٩٥٦)

م.د. عمر خالد عباس الجوراني

مديرية تربية صلاح الدين / قسم تربية بيجي

O1m9a9r0khalid@gmail.com

الملخص

يتناول هذا البحث دور المرأة الريفية في تونس خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٤ و١٩٥٦، وهي مرحلة مفصلية في تاريخ الحركة الوطنية ضد الاستعمار الفرنسي. فقد أسهمت المرأة الريفية، رغم واقع التخلف الاقتصادي وقسوة الظروف الاجتماعية، في دعم النضال الوطني بوسائل متعددة، شملت إيصال الرسائل السرية، وإخفاء المناضلين، وجمع التمويل والإمدادات، فضلاً عن المشاركة الرمزية في الاحتجاجات والمناسبات الوطنية. ويُبرز البحث كيف ساعد ارتباط المرأة الريفية بالأرض والبيئة التقليدية على تعزيز روح المقاومة والحفاظ على الهوية الثقافية. كما يعرض تأثير الوعي السياسي الذي بدأ يتشكل لديها مع تصاعد حركة المقاومة التونسية في بداية ومنتصف الخمسينيات وتُظهر النتائج أن دور المرأة الريفية وإن ظلّ مهمشاً في أغلب المصادر، كان عنصراً مؤثراً في تعزيز صمود المجتمع التونسي وصولاً إلى استقلال البلاد سنة ١٩٥٦.

الكلمات المفتاحية:

المرأة الريفية– تونس– الحركة الوطنية– الاستعمار الفرنسي – المشاركة السياسية.

Keywrds:

Rural woman- Tunisia -National movement:- French colonialism - Political participation

Abstract

This study examines the role of rural women in Tunisia between 1930 and 1956, a critical period in the national struggle against French colonial rule. Despite harsh social and economic conditions, rural women actively contributed to the nationalist movement through various means, including delivering secret messages, sheltering resistance fighters, collecting supplies, and offering logistical support. Their engagement also extended to symbolic participation in protests and national events. The research highlights how the rural woman's deep connection to land, tradition, and community strengthened the spirit of resistance and preserved cultural identity. Moreover, the rise of reformist movements and the gradual spread of education contributed to shaping her political awareness. The findings demonstrate that, although often overlooked in historical records, the role of rural women was essential in reinforcing Tunisia's social resilience and supporting the path to independence in 1956.

المقدمة

شهدت تونس في النصف الأول من القرن العشرين تحولات اجتماعية وسياسية عميقة، كان للريف نصيبٌ كبير من تأثيراتها، لا سيما في ظل الاستعمار الفرنسي(١٨٨١–١٩٥٦) الذي فرض واقعًا اقتصاديًا واجتماعيًا قاسيًا على سكانه. وفي خضم هذا السياق التاريخي المضطرب، برزت المرأة الريفية كلاعبة فاعلة في النضال الوطني، متحدية الظروف القاسية ومتجاوزة الصور النمطية.

يهدف هذا البحث إلى دراسة دور المرأة الريفية في الحركة الوطنية التونسية خلال الاعوام من (١٩٣٤– ١٩٥٦) من خلال تحليل واقعها الاجتماعي والاقتصادي، واستكشاف أشكال مشاركتها في مقاومة الاستعمار الفرنسي، سواء من خلال الدعم اللوجستي أو الانخراط المباشر في النشاط السياسي السري والاحتجاجات الشعبية. كما يسعى البحث إلى تسليط الضوء على رموز نسائية ريفية بارزة، والكشف عن التحديات والمعيقات التي واجهتهن، وأثر تلك المشاركة في تشكيل الوعي الوطني والاجتماعي لدى المجتمع التونسي.

وتكمن أهمية هذا البحث في كونه يسلط الضوء على فئة مهمّشة في السرديات التاريخية، إذ غالبًا ما انصبّ التركيز على النخب النسائية في المدن، بينما ظلّت مساهمات المرأة الريفية في الظل. ومن هنا، يسعى هذا العمل إلى رد الاعتبار لتلك الفئة الاجتماعية وتوثيق نضالاتها، اعتمادًا على مصادر عربية موثقة، وشهادات شفوية، ودراسات أكاديمية متخصصة.

ومن خلال هذا التحليل، يسعى البحث إلى تقديم إسهام علمي في فهم الدور المركّب الذي لعبته المرأة الريفية في بناء الحركة الوطنية، وكيف ساهمت مشاركتها في تطور الوعي الوطني والمجتمع

التونسي بشكل عام، كما يخلص إلى توصيات تهدف إلى تعزيز حضور المرأة الريفية في الحاضر، والاعتراف بإسهاماتها التاريخية في بناء الوطن.

لقد واجهة الباحث صعوبات كبيرة جداً في ايجاد المصادر التاريخية التي تظهر دورة المرأة الريفية في حركة المقاومة التونسية، وان وجدت تلك المصادر إلا انها أظهرت غياب واضح في تدون سنوات الحوادث التاريخية التي تسجل مساهمتهن في مساعدة رجال الحركة الوطنية رغم ذلك وجد الباحث ضرورة في بيان الدور التي قامت به لا سيما وان جل المصادر التاريخية لم تسلط الضوء على ذلك الدور الفعال للمرأة الريفية التونسية .

الاول: التعليم والأمية وأثر السياسات الاستعمارية في تهميش المرأة الريفية

شكّل التعليم أحد أخطر المجالات التي تأثرت بها المرأة الريفية في ظل الاستعمار الفرنسي (١٨٨١– ١٩٥٦)، اذ اعتمدت الإدارة الاستعمارية سياسة تمييز واضحة بين المدن والقرى، وبين الذكور والإناث، فكانت النتيجة ارتفاعًا مهولًا في معدلات الأمية بين النساء الريفيات. وتشير الدراسات الاجتماعية التي تناولت وضع الأرياف التونسية إلى أن نسبة الأمية بين النساء تجاوزت في بعض المناطق ٩٠% خلال ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين، وهو ما جعل الريف فضاءً شبه معزول عن أي تطور ثقافي أو معرفي (العويني، ٢٠١٢، ص ٤٥).

عرفت تونس قبل الاستعمار نظامًا تعليميًا تقليديًا قائمًا على الكتاتيب وجامع الزيتونة، إلا ان ذلك النظام تراجع بشكل ملموس في المناطق الريفية نتيجة سياسات التقييد التي فرضتها الإدارة الفرنسية. فقد عملت السلطات على تقليص نفوذ التعليم الزيتوني وإغلاق عدد من فروعه في القرى، أو إضعافها عبر التحكم في الموارد المالية، مما أثّر مباشرة على تعليم الفتيات الريفيات، لا سيما وأن التعليم التقليدي كان يمثل المسار الوحيد المتاح لهن قبل دخول التعليم العصري بشكل واسع (ابن سالم، ٢٠١٠، ص ٢٧).

إما المدارس النظامية التي أسستها فرنسا نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أمثال الليسيه كارنو عام ١٨٩٣ كانت موجهة بالأساس إلى المدن والمراكز الحضرية، ولم تشمل الأرياف

إلا بشكل محدود جدًا. وحتى حين وُجدت بعض المدارس الابتدائية في القرى، فقد خُصص معظمها للذكور، بينما اعتُبر تعليم الفتاة الريفية أمرًا غير ذي أولوية ضمن السياسة الاستعمارية التي رأت في الريف "خزانًا للفلاحة والعمل اليدوي" أكثر من كونه فضاءً للتنمية البشرية. وقد أشارت تقارير تربوية فرنسية إلى أن تعليم البنات "لا يخدم المصالح الزراعية"، وهو ما يكشف النزعة الاقتصادية المصلحية وراء حرمان النساء من التعلم (بلحسن، ٢٠١٥، ص ٩٨).

وقد ترتب على ذلك الحرمان جملة من الآثار الاجتماعية والثقافية الخطيرة؛ فارتباط المرأة الريفية بالأرض والبيت، وافتقارها للتعليم النظامي، جعلاها أسيرة الأدوار التقليدية، وغير قادرة على التفاعل مع التطورات السياسية التي شهدتها البلاد في الثلاثينيات والأربعينيات. ومع ذلك، فإن غياب التعليم لم يمنع انتقال الوعي الوطني إلى النساء، إذ انتقل إليهن عبر الأسواق الأسبوعية والمناسبات الدينية ووسائل الاتصال الشفوي، وهو ما يعكس دور الثقافة الشعبية في تعويض غياب التعليم الرسمي (التميمي، ١٩٩٤، ص ٦٣).

كما أدى ضعف التعليم إلى استمرار النظرة الدونية تجاه المرأة الريفية داخل المجتمع ذاته، حيث اعتُبر تعليمها غير ضروري، وهو ما جعل العديد من الأسر تمتنع عن إرسال بناتها للمدارس حتى حين توفرت في بعض المناطق. وقد أدى ذلك التداخل بين الأعراف التقليدية والسياسات الاستعمارية إلى خلق بنية تهميش مزدوجة جعلت الفتاة الريفية بعيدة تمامًا عن أي صعود اجتماعي أو سياسي (الغربي، ٢٠٠٨، ص ٧٩).

من خلال ما تقدم يتضح أن الأمية لم تكن مجرد ظاهرة اجتماعية، بل كانت أداة استعمارية واضحة هدفت إلى إبقاء الريف في حالة جهل واستسلام، ومنع المرأة خصوصًا من اكتساب الوعي الذي يتيح لها المشاركة في الحركة الوطنية التونسية . وقد كان لذلك الواقع أثر مباشر في تشكيل شخصية المرأة الريفية التي ستنخرط لاحقًا في المقاومة رغم افتقارها للتعليم الرسمي، كما سيظهر.

ثانياً: نشأة الوعي الوطني لدى المرأة الريفية وبدايات انخراطها في الحركة الوطنية

كانت المرأة ركن من اركان الوطن والمجتمع وعامل من العوامل الفاعلة في تحرير الاوطان من المستعمر، والمرأة الريفية التونسية لها نصيب كبير من الفاعلية في حركة المقاومة والنضال المسلح لم يؤخذ مكانته بصورة كبيرة بين كتب التاريخ (محمدي، ٢٠٢٥، ص١٨٣) .

بدأ الوعي الوطني لدى المرأة الريفية في تونس يتشكل تدريجيًا نتيجة تراكمات اقتصادية واجتماعية وسياسية فرضتها سياسات الاحتلال الفرنسي. فمنذ الثلاثينيات واجهت القرية التونسية ضغطًا متزايدًا بسبب الاستيلاء على الأراضي الخصبة من قبل المعمّرين الفرنسيين (وهم جماعة من الاوربيين جاؤوا الى تونس بعد الاحتلال الفرنسي عام ١٨٨١ وكان اغلبهم من الفرنسين استفادوا من الامتيازات التي منحت لهم وزدادوا بصورة تدريجية لا سيما نهاية القرن التاسع عشر والعشرين غادروا تدريجيا بعد استقلال تونس عام ١٩٥٦ . للمزيد: انتصار، بوسالم، الاخوة، ٢٠٢٥، ١٠)، وهو ما أدى إلى تراجع الموارد الزراعية واضطرار الرجال إلى الهجرة الموسمية نحو المدن. ومع غياب الرجل، أصبحت المرأة الريفية تتحمل مسؤولية مضاعفة داخل البيت والحقول، مما جعلها أكثر إدراكًا لطبيعة الظلم الاستعماري الفرنسي وتأثيره المباشر على معيشتها اليومية، وقد تزامن ذلك مع بروز احزاب وشخصيات وطنية متمثلة بالحزب الدستوري الجديد بقيادة الحبيب بورقيبة (وهو ابرز شخصية تونسية في القرن العشرين ولد عام ١٩٠٣، قاد حركة المقاومة التونسية ضد الاستعمار الفرنسي واستطاع من تحقيق الاستقلال عام ١٩٥٦ واصبح اول رئيس في تاريخ تونس عام ١٩٥٧، توفي عام ٢٠٠٠، براهم، ٢٠١١، ص٥ –٢٠٠)، وصالح بن يوسف (ولد في جزيرة جربة ١١ تشرين الاول عام ١٩٠٧ هو الرجل الثاني في قيادة الحركة الوطنية التونسية بعد الحبيب بورقيبة والامين العام للحزب الحر الدستوري الجديد قبل الاستقلال عام ١٩٥٦ كانت له شعبية كبيرة، اختلف مع الحبيب بورقيبة على طبيعة الاستقلال الداخلي عام ١٩٥٥ ادت الى نشوب معارك بين الجانبين كادت ان تتطور الى حرب اهلية، تم اقصائه بعد ذلك من الساحة السياسية واغتيل عام ١٩٦١ في

فرانكفورت،بولفعة، محمد، ٢٠١٨، ص١٩ –٨٩)، لا سيما بعد عام ١٩٣٤ (حمودة، ١٩٩٢، ص٤٤)

عملت المرأة الريفية التونسية في سبيل تحرير الوطن فانصهرت في صفوف المقاومين في المدن والقرى، والتحقن بالمجاهدين في الجبال تشد من أزرهم، وكانت المرأة الريفية تقوم بالاتصالات السرية بينهم وتحمل بريدهم وذخيرتهم وتترصد تحركات العدو وتوافيهم بالأخبار، ولم تتردد المرأة الريفية لإيواء الزعماء والمجاهدين وحمايتهم عند الاقتضاء فضلاً عن الإسهام في الأعمال الوطنية الميدانية ونزولها إلى الشارع لترويج المناشير والصحافة الحزبية وتنظيم الاجتماعات السرية (عبد الله، ١٩٧٥، ص٧٢) .

أسهمت الأحداث السياسية الكبرى في تونس لا سيما أحداث عام ١٩٣٨ (انتفاضة شعبية تونسية قادها الحزب الدستوري الجديد ضد الاستعمار الفرنسي للمطالبة بإصلاحات سياسية ابرزها قيام حكومة وطنية تأخذ على عاتقها تأسيس برلمان تونسي، ادى ذلك الى قيام السلطات الفرنسية بقمع المتظاهرين وسقوط ١٢٢ قتيل ومئات الجرحى، قاسم، ١٩٨٤، ص١٢٤ – ١٢٨) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) واعتقال قيادات الحزب الحر الدستوري الجديد(مثلِ بعد احداث ١٩٣٨ ثلاث الاف تونسي أمام المحاكم التي اصدرت ضدهم احكام انتقامية وفرضت الرقابة على الصحف كما وجهت لزعماء الحزب تهمة التأمر على أمن الدولة الداخلي والخارجي والصقت بالحبيب بورقيبة تهمة الاتصال بدولة اجنبية وهي ايطاليا وعليه تم اعتقال بورقيبة والمنجي سليم وأحيل القادة الدستوريون على المحكمة العسكرية وتمّ حل الحزب الدستوري الجديد في ١٦ نيسان ١٩٣٨ . كاظم، ١٩٨٤، ص١٢٨ – ١٢٩) في انتشار الوعي الوطني داخل الأرياف. فقد كانت النساء يستمعن إلى أخبار الاعتقالات والاحتجاجات التي ينقلها الرجال العائدون من المدن، ويشاهدن القوات الفرنسية وهي تداهم القرى بحثًا عن المناشير أو المناضلين. وتذكر إحدى روايات الريف في سيدي بوزيد وسط تونس أن امرأة تُدعى زهرة الغربي كانت أول من أخبر أهل القرية بانتفاضة عام ١٩٣٨ بعد سماعها

الخبر في السوق الأسبوعية، وقد اجتمع حولها نساء كثيرات لمعرفة ما يجري، وهو ما يؤكد انتقال الوعي الوطني عبر القنوات الشعبية التقليدية (التيمومي، ١٩٩٧، ص ٧٢).

وتذكر إحدى الروايات أنّ امرأة من ريف قابس تُدعى خديجة بن ناجي تحدثت لأول مرة عام ١٩٣٨ عن "المسيرات والرصاص" بعد مشاهدتها تجمعات سياسية في سوق جلاص، وهو ما يدل على أن الوعي كان ينتقل بطرق شعبية وبسيطة لكنه يترك أثرًا عميقًا في ذاكرة النساء (التيمومي، ١٩٩٧، ص ٧٣).

فقد ساهمت سياسات الاستعمار لا سيما الاستيلاء على الأراضي والضرائب واستغلال الضيعات الفلاحية (حمودة، ١٩٩٢، ص ٩١). لاسيما عندما اصدرت قرارا ٢٦ كانون الاول ١٩٣٨ ومن اغرب في ذلك القانون لإثبات حق المدعي يشترط ان تكون الارض بها حرث او نبات او بناء وان لا ملكية ما لم يتوفر هذا الشرط وان كان للمالك عقود تثبت صحة الملكية، كما أجبرت سلطة الحماية الفرنسية الفلاحين على الاعتراف لملكيتها لاراضيهم ولزمت كل فلاح بدفع اجر سنوي فضلا عن توزيعها (١٤٣٥٦٠) هكتار للعوائل الفرنسية في المنطقة الشمالية و (٥٣٦٠٥) هكتار في المناطق الوسطى والجنوبية، وعملت على سياسة ترمي الى جلاء التونسيين من الاراضي الخصبة واقصائهم الى الاراضي القاحلة (البهلوان، ٢٠١٧، ص٢٨ – ٣٣) كل ذلك دفع المرأة الريفية إلى فهم طبيعة الظلم المفروض على قريتها وأسرتها، وهو ما شكّل الأساس الأول لبروز وعي سياسي مبكر، حتى وإن لم يكن مؤطّرًا تنظيميًا. وتشير الدراسات الاجتماعية إلى أنّ المرأة الريفية بدأت تدرك العلاقة المباشرة بين السياسات الاستعمارية وتدهور وضعها الاقتصادي والمعيشي، مما جعلها أكثر استعدادًا للمشاركة في العمل الوطني (حمودة، ١٩٩٢، ص ٩١).

وإلى جانب تلك الأحداث، لعبت المناسبات الدينية والاجتماعية مثل المواسم والليالي القرآنية دورًا مهمًا في انتشار المعلومات السياسية. ففي منطقة الكاف الواقعة في الشمال الغربي من تونس، كانت النساء يتجمعن عند "الزوايا" (وهي مؤسسة دينية صوفية تاريخية ظهرت في العهد الحفصي كانت

مركز للعبادة والذكر والتصوف قامت بدوراً اجتماعياً هاماً خلال الاحتلال الفرنسية لتونس . بالراشد محمد، الزوايا في تونس : بحث في التغيرات الاجتماعية بالقرية التونسية . مجلة الاتحاف، ١٩٩٤، ص٢١-٢٣) خلال الاحتفالات الدينية، وهناك يتداولن أخبار المقاومة في شكل قصص وحكايات. وقد سجلت شهادات لاحقة من نساء تلك المنطقة أنهن كنَّ يسمعن لأول مرة أسماء قادة الحركة الوطنية عام ١٩٣٨ من خلال أحاديث الرجال في تلك المجالس، مثل الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف، مما خلق في أذهانهن تصورًا مبدئيًا عن معنى الاستعمار وضرورة مقاومته (ضيف الله، ١٩٩٩، ص ١٣٣).

كما ساهمت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) في زيادة احتكاك النساء الريفيات بالقوات الأجنبية. ففي عام ١٩٤٢، حين مرّت القوات الألمانية والإيطالية ومن ثم البريطانية عبر بعض القرى، لاحظت النساء حجم الصراع الدولي على الأرض التونسية، وأصبح لديهن إدراك واضح بأن الاحتلال ليس قدرًا بل قوة يمكن هزيمتها. وقد ذكرت إحدى الفلاحات في ريف القيروان تُدعى **حسينة بنت مبروك** أن مشاهد القصف ونزوح العائلات جعلتها "تفهم معنَى الوطن" لأول مرة، كما ورد في إحدى شهادات عام ١٩٨٥ (ثامر، ٢٠٠٣، ص ٨٨).

وكانت الأسواق الأسبوعية خلال المدة (١٩٣٨ – ١٩٥٦) من أهم وسائل نشر الوعي الوطني. ففي سوق الجم والسواسي والشابة في ولاية المهدية، كانت النساء تستمعن إلى الخطباء الوطنيين الذين كانوا يلقون خطبًا مختصرة في الزوايا أو أمام الدكاكين، مما أدى إلى انتشار شعارات الحركة الوطنية في الريف الساحلي. وقد ساعد ذلك الانتشار على خلق توافق شعبي واسع يرى في الاستقلال خلاصًا لا للفلاح فقط، بل للمرأة التي تتحمل أعباء الأرض والأسرة (الحناشي، ٢٠١٠، ص ٩٤).

كما ظهرت نماذج نسوية كان لها دور في تهيئة القرى لمساندة الوطنيين. ففي منطقة بنزرت شمال تونس برزت منوبية الجلاصي، وهي فلاحة كانت تنقل الرسائل بين القرى مستغلةً خروجها اليومي لجمع الحطب. وقد اعترف قادة الحزب الحر الدستوري الجديد عام ١٩٥٦ بأنها كانت "عين الريف"

على تحركات القوات الفرنسية، رغم أن اسمها لم يظهر في الوثائق الرسمية، ومثلها في الريف الجنوبي، برزت امرأة تُدعى العطرية السهيلي من ريف قفصة، وكانت تنبه المقاومين من قدوم الدوريات بعد أن تراقب الطريق من أعلى الربوة القريبة من منزلها(شريعة، ١٩٨٧، ص ٩٧).

تظهر تلك الأمثلة أن الوعي الوطني لدى المرأة الريفية لم يتشكل عبر الكتب أو الصحافة، بل عبر التجارب اليومية المباشرة، والأحاديث الشعبية، والمواقف التي عاشتها خلال اعوام التوتر السياسي. وبذلك أصبحت المرأة الريفية شريكة حقيقية في التطور التدريجي للحس الوطني (قلالة، ١٩٩٥، ص١١٨).

ثالثاً: تطور الوعي السياسي والاجتماعي للمرأة الريفية

شهد الوعي السياسي والاجتماعي للمرأة الريفية في تونس تحوّلًا عميقًا خلال الفترة الممتدة بين ١٩٣٨ و١٩٥٦، إذ انتقلت من موقع المتلقّي للأحداث إلى فاعل يشارك فيها ويتأثر بها بشكل مباشر. كما أسهمت الظروف الاجتماعية في تطوير هذا الوعي؛ فمع غياب الرجال بسبب العمل الموسمي أو المطاردة السياسية، اضطرت المرأة إلى إدارة شؤون الأسرة والتعامل مع الإدارة الاستعمارية بشكل مباشر، سواء للحصول على وثائق أو لمتابعة القضايا الفلاحية. هذا الاحتكاك المباشر بالمؤسسات خلق نوعًا من الوعي بالحقوق والسلطة، وفتح أمام المرأة الريفية مجالًا جديدًا لفهم الحياة العامة بعيدًا عن الدور المنزلي التقليدي (قلالة، ١٩٩٥، ص ٦٤).

ومع بداية الخمسينيات، توسّع هذا الوعي نتيجة انتشار العمل الفدائي في الجبال. فالمرأة التي كانت تراقب تحركات القوات أو تحذر الأهالي من المداهمات، بدأت تدرك أنّها جزءٌ فعلي من شبكة المقاومة، مما منحها إحساسًا متزايدًا بالقيمة والدور. ويؤكد عدد من المقاومين أنّ النساء كُنّ أكثر وعيًا بمخاطر التعاون مع المستعمر، وأنهن كثيرًا ما رفضن تسليم أي معلومة حتى تحت التهديد، وهو ما يشير إلى نضج سياسي لم يكن مألوفًا في الريف قبل تلك الفترة (الحناشي، ٢٠١٠، ص ١٦٢).

لقد أدى كل هذا إلى نشوء وعي سياسي واجتماعي جديد لدى المرأة الريفية، يتجاوز الانتماء العائلي أو القبلي ليصل إلى شعور بالانتماء للوطن وقضية التحرر. وبذلك يمكن القول إنّ تطور الوعي السياسي لدى المرأة الريفية لم يكن نتاجًا لبرامج حزبية، بل كان نتيجة طبيعية لتجربتها اليومية مع القهر الاستعماري، ولمشاركتها الفعلية في حماية القرية والمقاومين. وهذا الوعي الجديد أسّس لاحقًا لتحولات اجتماعية واضحة بعد الاستقلال.

رابعاً: المرأة الريفية والمشاركة في الحركة الوطنية (١٩٣٨–١٩٥٦)

١- مساهمة المرأة الريفية في الدعم غير المباشر للمقاومة التونسية :

كان الدعم غير المباشر الذي قدمته المرأة الريفية للمقاومة الوطنية أحد أهم العوامل التي سمحت للحركة النضالية بالاستمرار في ظل الحصار الأمني الفرنسي. فقد كانت البيوت الريفية، بسبب بعدها عن مراكز الإدارة الاستعمارية، تشكّل شبكة آمنة لإخفاء المطاردين. ونُذكر من بين هؤلاء النسوة اللواتي ذكرتهن شهادات قادة الحركة الوطنية هنية بنت لطيف (١٩١٧ – ١٩٨٧) التي التجأ الى بيتها المقاومين الذين هربوا من سجن تونس عامي ١٩٥٢ و١٩٥٣ اثناء معركة جبل مطير كما قامت بإيصال اسلحة وأدوية لمصباح الجربوع ومحمد قرفة (الضاوي، ٢٠١٨، ص٢٠٢–٢٠٣) . كما ذكر نساء من منطقة سيدي بوزيد—بينهن فلاحة تُدعى الفتحية القاسمي مجموعة من المقاومين سنة ١٩٥٣ بعد مواجهات مسلحة قرب جبل "المثنان"، واستطعن إخفاء آثار وجودهم داخل مخزن الحبوب، وهو ما أنقذ المجموعة من الاعتقال بعد تطويق القرية من قبل القوات الفرنسية (التيمومي، ١٩٩٧، ص ١١٩).

كما قامت النساء بتأمين الإمدادات الغذائية للمقاتلين، إذ كانت المرأة تحمل مؤون الغذاء والذخائر الى المقاومين في وضح النهار على البغال . وقد بيّنت شهادات من ريف القيروان أنّ امرأة تُدعى فطومة ضيف الله كانت تجمع الخبز من عدة بيوت وتضعه في سلة واحدة وترسله مع طفلة صغيرة نحو جبل الرقاب حيث تستقر إحدى مجموعات الفدائيين. تلك العملية كانت تتم ليلًا لتفادي مراقبة

الدوريات العسكرية، وقد اعتُبرت إحدى أشهر "عمليات التموين السري" في المنطقة (حمودة، ١٩٩٢، ص ٨٨).

كان للمرأة الريفية أيضًا دور كبير في نقل الرسائل السرية بين القرى. اذ كانت النساء بحكم عملهن في جلب الحطب أو الذهاب إلى الآبار يسلّمن الرسائل للمناضلين دون إثارة الشبهات. وفي منطقة الكاف، ذُكر اسم امرأة تُدعى حليمة بن فرج التي كانت تنقل الأخبار من قرية "الدهماني" إلى جبل "ورغة"، حيث تتمركز فرق مقاومة بقيادة مناضلين محليين خلال المدة (١٩٥٢ – ١٩٥٥) . وقد اعترف أحد المقاومين بعد الاستقلال بأن "نصف عمليات الاتصال في الجبل كانت تمر عبر النساء" (ضيف الله، ١٩٩٩، ص ٢٢٨).

ومن أبرز أدوار المرأة الريفية دورها في مراقبة تحركات القوات الاستعمارية. فقد كانت النساء يراقبن الطرقات من المرتفعات أثناء قيامهن بأعمال الرعي، ثم يرسلن التحذيرات إلى الأهالي فور رؤية شاحنات الجيش. وتروي المصادر أن امرأة من ريف المهدية تُدعى العربية الخميري أنقذت مجموعة مقاومين سنة ١٩٥٤ عندما شاهدت انطلاق حملة مداهمة من ثكنة "البغدادي"، فأرسلت ابن أختها لإبلاغهم بضرورة تغيير مخابئهم قبل وصول القوات الفرنسية (الحناشي، ٢٠١٠، ص ١٤٤).

كما لعبت النساء دورًا مهمًا في التضليل الإعلامي والمكاني للمستعمر. ففي منطقة جبال خمير بالشمال الغربي التونسي عام ١٩٥٤، كانت فلاحة تُقدّم للمستعمرين معلومات خاطئة عن اتجاهات المقاومين، وتدلّهم على مسارات وعرة أو مغلقة، مما أدى إلى فشل عدة حملات تمشيط. وقد شهد أحد الضباط الفرنسيين في مذكراته بأن ((**النساء الريفيات هن الأكثر قدرة على إرباك خطوطنا وتضليل جنودنا**))، في إشارة إلى براعة المرأة الريفية في إخفاء المعلومات الحقيقية (قلالة، ١٩٩٥، ص ١٣٢).

وتظهر إضافة الشهادات أنّ الدعم غير المباشر للمرأة الريفية لم يكن الدور الأبسط كما تصفه بعض المصادر، بل كان محورًا أساسيًا في استمرار المقاومة. فتلك الأفعال الإيواء، التموين، التنبيه، التضليل، نقل السلاح، نقل الأخبار كانت تتم تحت تهديد الاعتقال والعقاب الجماعي. وقد تعرضت نساء كثيرات للعنف، والجلد، وحرق البيوت أثناء حملات التمشيط الفرنسية، لكنّهن واصلن ذلك الدور بدافع الانتماء للأرض وللوطن (شريعة، ١٩٨٧، ص ١٠١).

وبذلك يمكن القول إن الدعم غير المباشر الذي قدمته المرأة الريفية لم يكن دعمًا ثانويًا، بل كان يمثل "العمود الفقري السرّي" للمقاومة، وهو ما جعل الحركة الوطنية قادرة على الاستمرار خلال الاعوام (١٩٥٢ – ١٩٥٥) رغم شدة القبضة الاستعمارية على المدن والقرى (ثامر، ٢٠٠٣، ص ٩٥).

٢ – : المشاركة المباشرة للمرأة الريفية في المظاهرات والإضرابات والعمل الفدائي

لم تقتصر مساهمة المرأة الريفية في النضال الوطني على الأعمال غير المباشرة، بل تجاوزتها إلى مشاركة ميدانية واضحة وملموسة، لاسيما خلال مدة الثورة (١٩٥٢ – ١٩٥٥). ويمكن القول إن المناطق الريفية كانت فضاءً مفتوحًا للحركة، مما أتاح للنساء الظهور في ساحات الاحتجاج والعمل الفدائي بشكل أكثر جرأة (حمودة، ١٩٩٢، ص ٩٩).

وقد ظهرت أولى صور المشاركة المباشرة في الإضرابات الفلاحية في ٤ اب ١٩٤٧، عندما قامت عاملات من ريف صفاقس بالتوقف عن جني الزيتون والعمل في الضيعات الاستعمارية احتجاجًا على تخفيض الأجور. وتشير بعض الشهادات إلى أنّ امرأة تُدعى **خيرة الشارني** قادت مجموعة من النساء في إضراب دام ثلاثة أيام، وكان للموقف تأثير قوي أجبر أحد المعمّرين الفرنسيين على رفع الأجر اليومي. ويعدّ ذلك من أوائل التحركات النسائية الريفية المسجلة تاريخيًا (حمودة، ١٩٩٢، ص ٩٩).

ان ابشع ما تعرضت له المرأة الريفية التونسية خلال هذه المدة التاريخية هي حادثة قرية تازركة في ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٢ وهي قرية ريفية يعمل اهلها في الزراعة تقع في الساحل الشرقي لمنطقة الوطن القبلي اذ قام الفرنسيون بمداهمة القرية وهدم اجزاء كبيرة من منازلها وقاموا بعد ان قتلوا واسوا الشيوخ والشبان بتعذيب نساء القرية وقد ظهرت المرأة الريفية من الشجاعة ورباطة الجأش ما جعلها مثالاً للرجال الوطنيين انفسهم فاشتهرت من بينهن صلوحة بنت محمد درويش التي اصبحت تسمى بطلة تازركة ومثالاً للوطنيات التونسيات فقد اظهرت شاعة فائقه في مواجهة الفرنسيين اثناء اقتحام العساكر بيت ابيها حتى اجبرتهم على الخروج ثم استدعو قوة اكبر تمكنت من اقتحام البيت بعد ان اصيبت اصابة بالغة ظنوا من خلالها انها استشهدت (البهلوان، ١٩٥٤، ٢٢١)، كما تذكر المصادر التاريخية اسم فاطمة بنت محمد التى ناضلت نضالا مريرة وهي تدافع عن شرفها وشرف ابنتها عندما حاول الفرنسين اغتصاب ابنتها دون جدوى، كما تم اغتصاب اعداد كبيرة من فتيات القرية بينما فضل اعدد اخرى منهن على رمي انفسن في ابار القرية . لم تقتصر الاعتداءات على كبار النساء بل شمل الاطفال منهن اذ قاموا بقتل فاطمة بنت صالح تبلغ من العمر عشرين يوماً وزهرة بنت بشير غلاب وعمرها خمس اشهر التي اخذت من ايدي والدتها والقيت على الارض وقد هربت امها وتركتها بعد ان حاول الجنود اغتصابها، وهناك العديد من الامثلة على تعرض المرأة الريفية للاعمال الوحشية للمستعمر الفرنسي نتيجة مساندتها لحركة المقاومة الوطنية في كل القرى التونسية . (البهلوان، ١٩٥٤، ٢٢٢)

كان ذلك التنكيل بالنساء الريفيات لما عرف عنهن من روح المقاومة لذا استغل الفرنسيون غياب رجال القرية للاعتداء من خلال القتل والاغتصاب اذ كانوا يعلمون ان كل مرأة ريفية في تلك المناطق تنتهك حرمتها تصاب بعار لا يمحوه الدهر وتصبح كأنها منبوذة في المجتمع(البهلوان، ١٩٥٤، ٢٢٢).

كما برزت مشاركة النساء في المظاهرات الوطنية التي رافقت حملة الاعتقالات عام ١٩٥٢. ففي منطقة الساحل، وتحديدًا في ريف المهدية، خرجت مجموعة من النساء في مظاهرة رافضة لاعتقال رجال القرية من قبل القوات الفرنسية. وقد استخدمن الطبول الريفية والتهليل الشعبي لتجميع الأهالي في ساحة القرية، مما أجبر القوات الفرنسية على الانسحاب تجنبًا للاشتباك المباشر مع السكان (التيمومي، ١٩٩٧، ص ١٣٧).

وتأخذ المشاركة المباشرة بُعدًا أكبر في العمل الفدائي، حيث انخرطت نساء ريفيات في نقل السلاح ودعم المجموعات المسلحة المنتشرة في الجبال. ففي منطقة جبال السلاسل – سيدي بوزيد، ساهمت فلاحة تُعرف باسم فطومة الطرابلسي في نقل الذخيرة داخل "قفاف" القش التي توضع على ظهر الدواب، وكانت تمر عبر النقاط الفرنسية دون إثارة الشبهات لأنها توهم الجنود بأنها تحمل أعلافًا. وقد استخدمت المقاومة ذلك الطريقة في عدة عمليات بين ١٩٥٢ و١٩٥٥ (ضيف الله، ١٩٩٩، ص ٢٣٩).

كما كان للمرأة الريفية حضور بارز في حماية المظاهرات التي وصلت أصداؤها إلى القرى. ففي ريف القيروان، عندما حاولت قوات المستعمر الفرنسي تفريق تجمع شعبي بعد أحداث ١٩٥٢، وقفت نساء مثل **بدرة الفرجاني وزهرة الهادي** في الصفوف الأمامية، حاملات الجرار الفخارية في مواجهة القوات الفرنسية، في مشهد سجلته شهادات محلية واعتُبر نقطة تحول في مشاركة النساء الريفيات (شريعة، ١٩٨٧، ص ١٢٣).

كما يذكر السيد عمار بن فرج بن عمار السبوعي احد قادة المقاومة بالحامية قابس عام ١٩٥٤ ان مجموعة من قادة المقاومة التونسية من تونس العاصمة راسلهم يطلبون ذخائر وبين انه عندما وصلنا الى تونس ودخلنا مسلكا فلاحيا وجدنا ثلاث رجال وأمرأتين وتم تسليمهم ٨٠٠ الف فرنك، وفي تلك الشهادة اشارة واضحة لمشاركة المرأة الريفية التونسية الرجال بتسليم المال والسلاح للمقاومين (

محمدي، ٢٠٢٥، ١٨٣) . ويقول الشاعر الشعبي عثمان العثماني من السواسي ولاية المهدية في قصيدة تحت عنوان تونس والثورة (المرزوقي، ١٩٨١، ص١١٤) :

والساحل ضحوا شبانه

وشيوخ ونسوان

زدموا على حامي نيرانه

بشجاعة وايمان

وهانوا نفوسهم للجبانه

في طوع الرحمان

تلك الأمثلة تؤكد أن المرأة الريفية لم تكن مجرد داعم خلفي، بل أصبحت جزءًا من الفعل النضالي المباشر، وأن مشاركتها تطورت إلى شجاعة ميدانية أثرت بعمق في سير العمليات الفدائية والاحتجاجية. بل إن بعض المؤرخين يرون أن المقاومة في المناطق الجبلية لم تكن لتستمر لولا هذا النوع من الدعم النسوي المباشر (قلالة، ١٩٩٥، ص ١٤٩).

٣- : مساهمة المرأة الريفية في بناء شبكات الدعم والتضامن

أدى انخراط المرأة الريفية في النضال الوطني إلى نشوء شبكات واسعة من الدعم والتضامن داخل القرى التونسية خلال الاعوام (١٩٣٤ – ١٩٥٦)، وهي شبكات اتسمت بطابعها غير الرسمي لكنها لعبت دورًا حاسمًا في استمرار المقاومة. فقد اعتمدت النساء على الروابط القرابية والعائلية والجماعية التي يتميز بها المجتمع الريفي، لبناء منظومة تعاون واسعة تمتد بين البيوت المتجاورة والقرى المتقاربة، وتشمل الإيواء، وإخفاء الأسلحة، ونقل الأخبار، وتوفير الغذاء للمقاومين. وتشير الدراسات

الاجتماعية إلى أن قوة العلاقات داخل المجتمع الريفي كانت "العمود الفقري" لهذه الشبكات التي ساعدت المقاومة على الصمود رغم الحملات العسكرية المتكررة (قلالة، ١٩٩٥، ص ١٣٢).

وقد لعبت المرأة دورًا مركزيًا في تنظيم هذه الشبكات، نظرًا لارتباطها اليومي بالأعمال المنزلية والزراعية التي تتيح لها التنقل بحرية نسبية داخل القرية دون إثارة الشبهات. ففي ريف الكاف مثلًا، كانت مجموعة من النساء—بينهن (منوبية الورغي وخديجة بن فرج) يتناوبن على مراقبة الطرق المؤدية للجبل، ويتبادلن الإشارات السرية لإبلاغ الفدائيين بتحركات القوات الفرنسية. هذا التنسيق بين النساء خلق ما يشبه "غرفة عمليات شعبية" ساهمت في إنقاذ مجموعات كاملة من المداهمات.

كما برزت شبكات الدعم النسائية في سيدي بوزيد خلال ثورة ١٩٥٢، حيث كانت النساء تتعاون في إعداد الطعام وإخفائه داخل سلال القمح أو بين طبقات الكسكسي المجفف، ثم تسليمه للمناضلين في الليل. هذا النوع من التعاون المنظم كان صعب الاكتشاف لأنّه يعتمد على أعمال تبدو منزلية وعادية (التيمومي، ١٩٩٧، ص ١١٩).

ولم تقتصر شبكات التضامن على القرى الداخلية، بل امتدت إلى الريف الساحلي أيضًا. ففي المهدية وسوسة، كانت النساء يقمن بتهريب الرسائل داخل أكياس الأعلاف أو بين القماش المخصص للغزل، وتُنقل هذه الرسائل من قرية إلى أخرى عبر علاقات المصاهرة والجوار. وقد اعترف بعض المناضلين لاحقًا بأن "أغلب الاتصالات بين الساحل والداخل كانت تتم عبر نساء يجمعهن التضامن الريفي"، وهو ما يدل على قوة الروابط الاجتماعية التي دعمت الحركة الوطنية (Ageron, 1990, p. 45)

كما ساهمت المرأة في تعزيز التضامن الاجتماعي داخل القرية نفسها، إذ كانت تتولى تأمين الأسر التي يفقد معيلوها بسبب الاعتقال أو المطاردة. فكانت الجارات يتقاسمن الطعام أو يعتنين بالأطفال أو يساعدن في الأعمال الزراعية، مما جعل المجتمع الريفي أكثر قدرة على امتصاص آثار القمع

الاستعماري. ويشير بعض الباحثين إلى أن "المرأة الريفية أعادت تعريف مفهوم التضامن" عبر جعل العمل النضالي متداخلًا مع الحياة اليومية والأدوار الاجتماعية المشتركة (الحناشي، ٢٠١٠، ص ١٧١).

لقد أنتج ذلك التفاعل شبكة دعم واسعة يصعب تفكيكها من قبل المستعمر، لأنها لم تقم على تنظيم حزبي ظاهر، بل على روابط اجتماعية قوية تجذّرت عبر الأجيال. وبذلك يمكن القول إن بناء شبكات الدعم والتضامن كان من أهم الإنجازات التي ساهمت فيها المرأة الريفية، إذ وفرت الإطار الاجتماعي الضروري لاستمرار المقاومة وحفظ تماسك القرية في وجه الاحتلال.

مهدت مشاركة النساء الريفيات في النضال لإعادة النظر في الأدوار الاجتماعية التقليدية، وتطور دور المرأة في التعليم والعمل والمجال السياسي (التميمي، ١٩٩٤، ص. ١٢٩).

رغم التقدم، بقيت العديد من النساء الريفيات تواجه تحديات اجتماعية واقتصادية، لكن مساهمتهن في تشكيل الهوية الوطنية ما زالت حية في الذاكرة الجمعية (زكريا، ٢٠٠٧، ص. ١٣٨).

خامساً :رموز نسائية ريفية بارزة في النضال الوطني التونسي (١٩٣٠–١٩٥٦)

رغم أن أغلب السرديات الوطنية سلطت الضوء على النخب الحضرية، لاسيما من النساء المثقفات في المدن، فإن الريف التونسي شهد بروز نساء ناضلن في صمت، بعيدًا عن الأضواء، وكنّ العمود الفقري للمقاومة في مناطق عديدة. وقد جسّدت هؤلاء النسوة مفهوم "النضال الشعبي" في أنقى صوره، عبر مبادرات ذاتية، شجاعة نادرة، وتضحيات جسيمة، دون انتظار مكافأة أو شهرة. ورغم التعتيم الرسمي الذي طال أدوارهن، بدأت بعض الدراسات المعاصرة في إحياء ذكراهن وتوثيق تجاربهن.

١: فطومة العياشي

وُلدت فطومة العياشي في منطقة "المظيلة" التابعة لولاية قفصة في الجنوب الغربي التونسي، في أسرة فلاحية فقيرة. لم تنل حظًا من التعليم الرسمي، لكنها تعلمت القراءة والكتابة على يد أحد شيوخ القرية، ومع تصاعد العمل الفدائي في الجنوب، بدأت فطومة تؤوي المناضلين، وتنقل الرسائل بين خلايا المقاومة في الجبال والمناطق الزراعية. ساعدت على إنشاء شبكات نسائية سرية تُقدّم الطعام والدعم الطبي للمقاتلين، وكانت تدير لقاءات صغيرة في بيتها لتوعية النساء بأهمية القتال(بن سالم، ٢٠١٠، ص ٩١)(Scott, 1999, p. 33) اعتقلت عام ١٩٥٣ بعد وشاية من أحد المتعاونين، وتعرضت لتعذيب شديد لكنها رفضت الكشف عن ذكر أسماء المقاومين، (Clancy-Smith & Gouda, 1998, p. 60) مما جعلها نموذجًا يُحتذى في قرى الجنوب من تونس.

٢: حبيبة الغربي

تنحدر حبيبة الغربي من قرية "ساقية سيدي يوسف" على الحدود التونسية الجزائرية، وهي منطقة كانت مسرحًا لنشاط فدائي كثيف. تأثرت حبيبة منذ صغرها بالنضال الجزائري المجاور، وأسست نواة نسائية تُدعى "الزهرات"، كانت مهمتها دعم المناضلين في الجهة الغربية من تونس.
نظّمت هذه المجموعة حملات جمع التبرعات، وشاركت في عمليات إغاثة ميدانية للفدائيين الجرحى، وكانت تحرص على تقديم دعم روحي ومعنوي من خلال اللقاءات النسوية الليلية، التي كانت تُقام بعيدًا عن أنظار الشرطة الفرنسية (الغربي، ٢٠٠٨، ص١٤٣).

٣: زهرة بوزيان

ولدت زهرة بوزيان في قبيلة الزغالمة من ولاية جندوبة، وتعلمت مهارات التمريض التقليدي من والدتها. وعند اندلاع المقاومة المسلحة، سخّرت خبرتها في مداواة الفدائيين في مناطق الغابات والمرتفعات. كانت تتنقل بحذر بين المداشر، وتحمل معها أعشابًا طبية وأدوات إسعاف بسيطة وفي عام ١٩٥٥، وأثناء محاولتها تهريب قنبلة صغيرة داخل سلة مغطاة بالقش، انفجرت القنبلة نتيجة خلل

في آلية النقل، واستشهدت في الحال. وقد تحولت جنازتها إلى تظاهرة شعبية حاشدة، اعتقل على إثرها عدد من الشبان (التميمي، ١٩٩٤، ص ١١٠) .

تمّ تناقل قصتها شفهيًا في الأوساط الريفية لسنوات، رغم محاولات التعتيم الرسمية، وذُكرت في بعض الأغاني الشعبية كرمز نسائي للاستشهاد والصمت البطولي (Perkins, 2004, p. 78).

رغم مساهماتهن العظيمة، لم تحظَ هؤلاء النساء، ولا غيرهن من رموز الريف، بتوثيق يليق بتضحياتهن. فقد ركّزت الروايات الرسمية للدولة الوطنية بعد الاستقلال على النخب المدنية والمثقفة، وتم تغييب النساء الريفيات من المناهج التعليمية، والذاكرة الوطنية العامة (حداد، ٢٠٠٥، ص ٥٥) ويعزو بعض الباحثين هذا التهميش إلى العقلية المركزية التي حكمت مسار التوثيق الوطني، حيث جُعلت "تونس العاصمة" ومحيطها المرجعية الوحيدة للبطولة والنضال، وهو ما أضر بالعدالة الرمزية تجاه فئات واسعة من الشعب.

ابتداءً من التسعينيات، برزت محاولات أكاديمية وشعبية لإعادة الاعتبار لهؤلاء النساء، من خلال إنجاز بحوث جامعية، وتسجيل شهادات حية، وإنتاج أفلام وثائقية، وتأسيس مبادرات توثيق شفوي في بعض الجامعات التونسية (زكريا، ٢٠٠٧، ص ١٢١). وقد ساهمت الجمعيات النسوية والمنظمات الثقافية في تسليط الضوء على هذه الرموز، سواء عبر المعارض الفنية، أو الحملات الرقمية المعاصرة.

تكشف قصص النساء الريفيات المناضلات عن وجوه خفية من ذاكرة المقاومة التونسية، ظلت لزمن طويل خارج الضوء الرسمي، ورغم غياب الاعتراف التاريخي المؤسساتي، فإن تضحياتهن شكلت ركيزة حيوية في المعركة من أجل الاستقلال. إن توثيق هذه النماذج لا يهدف فقط إلى تصحيح السردية، بل إلى إرساء عدالة رمزية تُنصف الريف التونسي ونساءه، وتمنح الأجيال القادمة نماذج وطنية متنوعة في أصولها وتجاربها.

سادساً: التحديات الاجتماعية والسياسية التي واجهت المرأة الريفية المناضلة (١٩٣٤–١٩٥٦)

لم تكن مشاركة المرأة الريفية في النضال الوطني خالية من العقبات، فقد واجهت تحديات ثقافية واجتماعية وسياسية معقدة، من داخل المجتمع الريفي نفسه، ومن القمع الاستعماري، وكذلك من داخل بنية الحركة الوطنية. أذ فرضت السلطات الفرنسية قيودًا صارمة على تنقلات السكان الريفيين، مع مراقبة النساء المشبوهات بالنشاط السياسي، وتعرض كثيرات منهن للعنف والترهيب (عبد المولى، ٢٠٠٦، ص. ١٩٢).

رغم الاعتراف النظري بدور المرأة، بقيت الهياكل القيادية للحزب الحر الدستوري الجديد مغلقة أمام النساء الريفيات، وحُصرن في أدوار ثانوية (عبد اللطيف، ٢٠٠٣، ص. ٧٢).

بعد ١٩٥٦، استُبعدت النساء الريفيات من التمثيل السياسي والمؤسسات الرسمية، وظلت التحديات الاجتماعية والاقتصادية قائمة (العويني، ٢٠١٢، ص. ١٢٠).

سابعاً: صورة المرأة الريفية في الخطاب الوطني التونسي

كان للخطاب الوطني خلال الثلاثينيات والخمسينيات دورًا محوريًا في تشكيل صورة المرأة الريفية داخل الوعي الشعبي التونسي، لاسيما بعد اتساع المواجهة مع الاستعمار الفرنسي. اذ استُخدمت صورة الفلاحة الريفية بوصفها رمزًا للصبر والارتباط بالأرض، وهو ما جعلها تتصدر الخطاب التعبوي الذي تبنّته الحركة الوطنية، فالخطباء والوطنيون كانوا يشدّدون على أن الفلاحة التونسية هي العمود الفقري للبلاد، وهي عبارة تكررت في عدة خطابات سياسية آنذاك، لتعزيز الروح الشعبية في النضال وتوسيع قاعدته الاجتماعية (ضيف الله، ١٩٩٩، ص ٣٠١).

ومع بداية الخمسينيات، أصبحت المرأة الريفية تُذكر في الاجتماعات الشعبية بوصفها الحارسة الصامتة للبيت والأرض، لاسيما بعد انتشار أخبار النساء اللواتي أخفين مناضلين أو شاركن في المظاهرات. في الساحل التونسي مثلاً، انتشرت قصص عام ١٩٥٢ عن فلاحة تُدعى رقية الهذلي التي

أوقفت قوات فرنسية من دخول ضيعتها عبر افتعال شجار علني، مما منح المقاومين وقتًا للخروج من المنطقة. مثل تلك القصص كانت تُنقل شفهيًا ثم تنتشر في القرى المجاورة، لتتحول إلى جزء من التعبئة الرمزية للنساء في عموم المناطق.

كما ساهمت الأغاني الشعبية الريفية في نشر صورة المرأة المقاومة. فقد ظهرت في سيدي بوزيد والقصرين "هزيجات" تتغنى بالنساء اللواتي يحمين المقاتلين أو ينقلن الأخبار، مثل الهجينة التي كانت تُقال في عام ١٩٥٤:

"يا فلاحة يا أمّ العز... سترك يحمّي الراجل ويعز"

وهي إحدى الهجائن التي وثقها باحثون لاحقًا باعتبارها جزءًا من الذاكرة الشفوية للمقاومة(ضيف الله، ١٩٩٩، ص ٣٠١).

وفي الوقت نفسه، استُخدمت صورة المرأة الريفية سياسيًا لصناعة خطاب وطني جامع. فقد أراد قادة الحركة الوطنية تصوير النضال ضد الاستعمار على أنه نضال يشارك فيه الجميع، رجالًا ونساءً، مدنًا وأريافًا، فكانت المرأة الريفية أفضل تجسيد لتلك الوحدة الاجتماعية. وقد استُحضرت قصصها في خطابات الحبيب بورقيبة وفي الخطب التي ألقتها قيادات الحزب الدستوري في بداية الاستقلال، للتأكيد على أن التحرير كان ثمرة جهد شعبي واسع (الحناشي، ٢٠١٠، ص ١٧١). اذ قال الحبيب بورقيبة في احد خطبه عا ١٩٥٦ " لولا المرأة الريفية التونسية لما نتصرت الثورة، فهي التي أخفت المجاهدين، وربت الابطال وحملت السلاح حين وجب، وحملت الزاد حين اشتد الحصار " وأكد ايضاً : " المرأة الريفية كانت خط الدفاع الخلفي للثورة، بل كانت في كثير من الاحيان خط المواجهة الاول" . (خطب الحبيب بورقيبة ١٩٥٦، ١٩٧٥، ص٢٦٧)

وتشير المراجعات اللاحقة إلى أن تلك الصورة رغم كونها رمزية في بعض الأحيان كانت مبنية على وقائع حقيقية من مشاركة النساء في الاحتجاجات، وإخفاء المقاومين، والدفاع عن الأرض. وقد

ساهمت تلك الصورة في ترسيخ مكانة المرأة الريفية بوصفها فاعلًا أساسيًا في الوعي الوطني، حتى لو لم تحصل لاحقًا على كامل الاعتراف المؤسسي بدورها (شريعة، ١٩٨٧، ص ١٠٨).

كانت مساهمات المرأة الريفية في الحركة الوطنية هي بداية التحرر وفرض الوجود، إذ كسبت المرأة من اندماجها في الحركة الوطنية احترام الغير، وبرهنت على قدرتها وكفاءتها وجدارتها بحياة اجتماعية متطورة، فكان تحرير الوطن إيذاناً بتحرير المرأة ودافعاً لها، ولا غرو في ذلك ولا عجب، إذ انصهرت ذات المرأة في ذات وطنها وأصبحت في حالة تفاعل ووعي حاد بالحرية والكرامة جزءان لا يتجزأن أبداً (عبد الله، ١٩٧٥، ص٧٢) ص٢٨ الاجتماعية

يتضح أن الخطاب الوطني لعب دورًا في بناء وتحسين صورة المرأة الريفية"؛ لا باعتبارها مجرد رمز، بل بوصفها قوة اجتماعية حقيقية ساهمت في صمود المجتمع وفي تشكيل الهوية الوطنية الجديدة التي رافقت مرحلة التحرر والاستقلال.

ثامناً: تعزيز مكانة المرأة الريفية في المجتمع التونسي

أدّت مشاركة المرأة الريفية في الحركة الوطنية إلى تعزيز مكانتها داخل المجتمع الريفي والتونسي بشكل واضح، إذ أظهرت التجربة النضالية أنّ المرأة ليست مجرد عنصر مساعد داخل الأسرة، بل فاعل أساسي في الصمود الاجتماعي وحماية دورة الإنتاج الفلاحي. فقد تحملت المرأة خلال فترات المطاردة والاعتقال مسؤولية الحقول ورعاية المواشي ومتابعة شؤون الأسرة، وهو ما جعلها في نظر المجتمع التونسي عنصرًا لا يمكن الاستغناء عنه. وتشير الدراسات الاجتماعية إلى أنّ المرأة الريفية أصبحت تُنظر إليها بعد الخمسينيات بوصفها "ركيزة الاستقرار الأسري والاقتصادي" بسبب ما قدمته خلال سنوات المواجهة مع الاحتلال الفرنسي (حمودة، ١٩٩٢، ص ١٣٣).

كما ساهمت عملية الإيواء وحماية الملاحقين سياسيًا في ترسيخ صورة جديدة للمرأة الريفية باعتبارها شريكة في حماية القرية ومقاومة الاحتلال، وهو ما غيّر موقعها داخل البنية التقليدية

للأسرة. فقد لاحظ باحثون أن مشاركة النساء في اتخاذ القرارات اليومية أدت إلى توسيع هامش دورهن الاجتماعي، وهو تحول مهم في بيئة تعتمد في الأصل على الأعراف القبلية والمحلية (قلالة، ١٩٩٥، ص ١١٨).

وبعد الاستقلال، استثمرت الدولة هذا الرصيد الرمزي، فأطلقت برامج تعليمية وصحية تهدف إلى تطوير قدرات النساء في المناطق الريفية. وقد ساعد المناخ الاجتماعي الجديد—الذي أصبح يعترف بدور المرأة—على استقبال هذه البرامج بمرونة أكبر، بعد أن كانت الأدوار الريفية التقليدية تقيد حركة النساء وتعليمهن. وتشير بعض التحليلات إلى أنّ صورة المرأة الريفية المقاومة لعبت دورًا في تسهيل قبول المجتمع لفكرة تعليم البنات وإلحاقهن بالمراكز الصحية والتكوينية التي ظهرت في نهاية الخمسينيات (ثامر، ٢٠٠٣، ص ٩١).

ومع أن هذا الاعتراف كان في جزء منه رمزيًا، إلا أنه أسهم في إعادة تشكيل الوعي داخل الأسرة الريفية؛ إذ أصبح الأبناء والبنات ينظرون إلى الأم الريفية باعتبارها صاحبة دور مزدوج: دور الإنتاج الزراعي، ودور المقاومة والصمود. وقد اعتبر الخطاب الوطني في تلك المرحلة أنّ المرأة الريفية تمثل "الذاكرة الحية للنضال من أجل الأرض"، وهو ما رسّخ مكانتها داخل الوعي الجماعي للتونسيين (Clancy-Smith, 1994, p. 112)

وبذلك يتضح أنّ مشاركة المرأة الريفية في النضال ضد الاستعمار لم ترفع مكانتها سياسيًا فحسب، بل أعادت صياغة موقعها الاجتماعي ومهدت لمرحلة جديدة من حضورها في التنمية الفلاحية والأنشطة الاجتماعية داخل القرى. لقد أصبح وجودها جزءًا من القوة المعنوية التي أسهمت في إعادة بناء الريف التونسي خلال مرحلة الانتقال من الاحتلال إلى الدولة الوطنية الحديثة.

شكلت مشاركة المرأة الريفية حجر الزاوية في إرساء قيم الوطنية والمواطنة، وأثرت إيجابًا في بناء الدولة التونسية الحديثة.

الخاتمة

١. أثبتت الدراسة أنّ المرأة الريفية لعبت دورًا مركزيًا في الحركة الوطنية التونسية، وأن حضورها لم يكن هامشيًا بل بنيويًا في استمرار المقاومة الشعبية ضد الاستعمار.

٢. أظهرت الدراسة أنّ وعي المرأة الريفية السياسي والاجتماعي تطور بشكل ملحوظ بفضل التجارب اليومية مع القهر الاستعماري، مما جعلها أكثر استعدادًا للانخراط في النضال الوطني.

٣. كشفت الأحداث الميدانية أن شبكات الدعم النسائي في القرى—من إيواء، تموين، وحماية—كانت ركيزة أساسية في إنجاح العمل الفدائي وتجاوز أزمات المطاردة والقمع.

٤. بيّنت الأمثلة التاريخية أنّ النساء الريفيات تجاوزن الأدوار التقليدية وشاركن في الاحتجاجات والمظاهرات والعمل السري، ما منح المقاومة عمقًا اجتماعيًا يصعب تفكيكه.

٥. أوضحت الدراسة أنّ العلاقات القرابية والتضامن الاجتماعي داخل الريف أسهما في بناء منظومة مقاومة غير مرئية، شكّلت أحد أكبر التحديات التي واجهت الإدارة الاستعمارية.

٦. بعد الاستقلال الداخلي، حصلت المرأة الريفية على اعتراف رمزي بدورها، لكنه لم يكن متناسبًا مع حجم تضحياتها، مما يدل على فجوة بين الذاكرة الشعبية والاعتراف الرسمي.

٧. ساعدت المشاركة الوطنية للمرأة في تمهيد الطريق لبرامج تعليمية وصحية في الريف خلال أواخر الخمسينيات، وهو ما يدل على أنّ أثر مشاركتها امتد إلى مرحلة بناء الدولة الوطنية.

٨. أظهرت الدراسة أنّ التفاوت في مشاركة النساء بين المناطق كان نتيجة اختلاف الظروف الجغرافية والاجتماعية، لا لغياب الوعي أو ضعف الإرادة.

٩. أكدت النتائج أنّ دور المرأة الريفية لا يمكن فهمه بمعزل عن طبيعة المجتمع الريفي نفسه، الذي يتميز بروابط قوية ساعدت على خلق بيئة حاضنة للمقاومة.

١٠. تخلص الدراسة إلى أنّ إعادة قراءة تاريخ الحركة الوطنية من زاوية الدور النسائي الريفي ضرورة علمية، لأنها تكشف أبعادًا جديدة من النضال التونسي، وتعيد الاعتبار لفاعلات تاريخيات غُيّبن طويلًا عن الكتابة الرسمية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

١. ابن سالم، محمد. التعليم الزيتوني ودوره في المجتمع التونسي قبل الاستقلال. تونس: دار المعرفة للنشر، ٢٠١٠.
٢. الأعوني، فوزية. المرأة الريفية في تونس: الواقع الاجتماعي والتحولات. تونس: دار محمد علي الحامي، ٢٠١٢.
٣. بلحسن، سمية. سياسات التعليم الاستعماري وأثرها في المجتمع التونسي. سوسة: دار الوسط الأكاديمي، ٢٠١٥.
٤. التميمي، عبد الجليل. الدور الاجتماعي للمرأة التونسية قبل الاستقلال. تونس: منشورات مؤسسة التميمي، ١٩٩٤.
٥. التيمومي، عبد اللطيف. الحركة الوطنية التونسية والأرياف (١٨٨١–١٩٥٦). تونس: مؤسسة التميمي للبحث العلمي، ١٩٩٧.
٦. ثامر، محمد. تونس في الحرب العالمية الثانية: المجتمع والاحتلال. تونس: منشورات الجنوب، ٢٠٠٣.
٧. حداد، فاطمة. المرأة والعمل الفلاحي في تونس: قراءة اجتماعية. تونس: دار المعرفة، ٢٠٠٥.

٨. براهم، حمد، بورقيبة خارج زمن الحكم مذكرات والي المنستير، دار بريل، تونس، ٢٠١١ .
٩. حمودة، عبد الله. المرأة الريفية والتحولات الاجتماعية في تونس. تونس: دار الكتاب الجديد، ١٩٩٢.
١٠. الحناشي، محمد الهادي. الحركة الوطنية في الساحل والوسط التونسي. سوسة: دار التنوير، ٢٠١٠.
١١. زكريا، أميمة. تجارب نسائية في المقاومة التونسية: دراسة تاريخية. تونس: دار ابن رشد، ٢٠٠٧.
١٢. شريعة، منصف. مشاركة المرأة في الحركة الوطنية التونسية. تونس: منشورات الجامعة التونسية، ١٩٨٧.
١٣. الضاوي، موسى، أضواء على الحركة اليوسفية بجهة تطاوين ١٩٥٥-١٩٥٦، تقديم الاستاذ فتحي ليسير، تونس، مطبعة التسفير الفني، ٢٠١٨ .
١٤. ضيف الله، الحبيب. الذاكرة الشعبية للمقاومة التونسية (١٩٣٠-١٩٥٦): دراسات وشهادات ميدانية. تونس: دار سيراس للنشر، ١٩٩٩.
١٥. عبد الله، الطاهر، الحركة الوطنية رؤية شعبية قومية جديدة (١٨٣٠ - ١٩٥٦)، مكتبة الجماهير، بيروت، ١٩٧٥ .
١٦. عبد اللطيف، مصطفى. الحزب الحر الدستوري الجديد: التنظيم والقيادة. تونس: دار الفكر التونسي، ٢٠٠٣.
١٧. عبد المولى، خميس. العنف الاستعماري في تونس (١٨٨١-١٩٥٦). تونس: دار سيراس للنشر، ٢٠٠٦.
١٨. البهلوان، علي، تونس الثائرة، تونس: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧ .
١٩. الغربي، منيرة. المرأة الريفية في تونس خلال الحقبة الاستعمارية. تونس: دار سحر للنشر، ٢٠٠٨.

٢٠.قلالة، سعيد. المجتمع الريفي التونسي والتحولات السياسية (١٩٠٠–١٩٥٦). تونس: دار محمد علي، ١٩٩٥.

٢١. المرزوقي، محمد، من شعر الكفاح المسلح، تونس : مطبعة فنون الرسم، ١٩٨١ .

ثانياً: الرسائل والاطاريح

١–خالدي بولفعة، بليل محمد، النشاط السياسي والنضالي لصالح بن يوسف ١٩٣٤ –١٩٥٦ بتونس، رسالة ماجستير، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون –تيارات، ٢٠١٨.

٢–قاسم زغير كاظم،الحزب الحر الدستوري الجديد ودوره السياسي في تونس ١٩٣٤ –١٩٥٦، رسالة ماجستير (غير منشورة) كلية الاداب – جامعة البصرة، ١٩٨٤.

٣–كحلة انتصار، نورة بوسالم، الشيماء الاخوة، الكولون الفرنسي ودوره في الحياة السياسية و الاقتصادية في تونس خلال الفترة الاستعمارية (١٨٨١_١٩٥٦)، رسالة ماجستير (غير منشورة)، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الوادي، ٢٠٢٥.

ثالثاً: المجلات

١. بن عمر، منصف. "المرأة الريفية في الجنوب التونسي ودورها في الاقتصاد التقليدي خلال الحقبة الاستعمارية". مجلة العلوم الاجتماعية – جامعة صفاقس، العدد ١٢، تونس، ٢٠١٨.

٢. الطرابلسي، فائزة. "تمثلات المرأة الفلاحة في الخطاب الوطني التونسي (١٩٣٠–١٩٥٦)". مجلة البحوث والدراسات الإنسانية – تونس، العدد ٧، تونس، ٢٠١٩.

٣. طارق محمدي، مسار تحرر المرأة في تونس قبل الاستقلال وبعده من خلال الشعر الشعبي، دورية كان التاريخية، السنة الثامنة عشر، العدد السبعون، اب ٢٠٢٥، ص٨٣ .

٤. بالراشد محمد، الزوايا في تونس : بحث في التغيرات الاجتماعية بالقرية التونسية، مجلة الاتحاف، السنة التاسعة، العدد (٤٨) نيسان ١٩٩٤.

٥. المرزوقي، حنان. "المقاومة الشعبية ودور النساء في دعم العمل الفدائي خلال الفترة الاستعمارية". مجلة تاريخ المغرب العربي – تونس، العدد ٥، تونس، ٢٠١٦.

ثالثاً: المصادر الانكليزية

1. Ageron, Charles-Robert. Histoire de la France coloniale (1914–1962). Paris: Armand Colin, 1990.
2. Clancy-Smith, Julia. Rebel and Saint: Muslim Notables, Populist Protest, Colonial Encounters. Berkeley: University of California Press, 1994.
3. Perkins, Kenneth. A History of Modern Tunisia. Cambridge: Cambridge University Press, 2004.
4. Scott, Joan. Gender and the Politics of History. New York: Columbia University Press, 1999.
5. Clancy-Smith, Julia & Frances Gouda (eds.). Domesticating the Empire. Charlottesville: University of Virginia Press, 1998.

List of Sources and References

First: Arabic Sources .

1) Ibn Salem, Muhammad. Zaytuna Education and its Role in Tunisian Society Before Independence. Tunis: Dar al-Ma'rifa Publishing, 2010.
2) Al-Aouni, Fawzia. Rural Women in Tunisia: Social Reality and Transformations. Tunis: Dar Muhammad Ali al-Hami, 2012.
3) Belhassen, Soumaya. Colonial Education Policies and their Impact on Tunisian Society. Sousse: Dar al-Wasat al-Akademi, 2015.
4) Al-Tamimi, Abdeljalil. The Social Role of Tunisian Women Before Independence. Tunis: Al-Tamimi Foundation Publications, 1994.
5) Al-Taymoumi, Abdellatif. The Tunisian National Movement and the Countryside (1881–1956). Tunis: Al-Tamimi Foundation for Scientific Research, 1997.
6) Thamer, Mohamed. Tunisia in the Second World War: Society and Occupation. Tunis: South Publications, 2003.
7) Haddad, Fatima. Women and Agricultural Work in Tunisia: A Sociological Reading. Tunis: Dar al-Ma'rifa, 2005.
8) Hamed Habib Brahim, Bourguiba Outside the Era of Power: Memoirs of the Governor of Monastir. Brill Publishers, Tunis, 2011.
9) Hammouda, Abdullah. Rural Women and Social Transformations in Tunisia. Tunis: Dar al-Kitab al-Jadeed, 1992.
10) Hannachi, Mohamed al-Hadi. The National Movement in the Tunisian Coast and Central Regions. Sousse: Dar al-Tanweer, 2010.
11) Zakaria, Oumaima. Women's Experiences in the Tunisian Resistance: A Historical Study. Tunis: Ibn Rushd Publishing House, 2007.

12) Sharia, Moncef. Women's Participation in the Tunisian National Movement. Tunis: Tunisian University Publications, 1987.
13) Dhawi, Moussa. Insights into the Yusufi Movement in the Tataouine Region 1955-1956, Introduction by Professor Fathi Laysir, Tunis: Al-Tasfir Al-Fanni Press, 2018.
14) Dhaifallah, Habib. Popular Memory of the Tunisian Resistance (1930–1956): Studies and Field Testimonies. Tunis: Siras Publishing House, 1999.
15) Taher Abdullah. The National Movement: A New Popular Nationalist Vision (1830–1956). Al-Jamahir Library, Beirut, 1975.
16) Abdel Latif, Mustafa. The Neo-Destour Party: Organization and Leadership. Tunisia: Tunisian Thought House, 2003.
17) Abdel Latif, Mustafa. The Neo-Destour Party: Organization and Leadership. Tunis: Tunisian Thought House, 2003.
18) Abdelmoula, Khamis. Colonial Violence in Tunisia (1881–1956). Tunis: Cérès Publishing House, 2006.
19) Ali Bahlawan, Tunisia in Revolt. Tunis: Hindawi Foundation, 2017.
20) Gharbi, Munira. Rural Women in Tunisia During the Colonial Era. Tunis: Sahar Publishing House, 2008.
21) Qallala, Said. Tunisian Rural Society and Political Transformations (1900–1956). Tunis: Muhammad Ali Publishing House, 1995.
22) Marzouki, Muhammad, From the Poetry of Armed Struggle. Tunis: Art of Drawing Press, 1981.

Second: Theses and Dissertations

1) Khaledi Boulfa, Belil Mohamed, The Political and Militant Activity of Salah Ben Youssef 1934-1956 in Tunisia, Master's Thesis, Faculty of Humanities and Social Sciences, Ibn Khaldoun University – Tiaret, 2018.
2) Kahla Intissar, Noura Bousalem, Chaima El-Akhwa, The French Colonies and Their Role in the Political and Economic Life of Tunisia During the Colonial Period (1881-1956), Master's Thesis (Unpublished), Faculty of Humanities and Social Sciences, University of El Oued, 2025.

Third: Journals

1) Ben Omar, Moncef. "Rural Women in Southern Tunisia and Their Role in the Traditional Economy During the Colonial Era." Journal of Social Sciences – University of Sfax, Issue 12, Tunisia, 2018.
2) Trabelsi, Faiza. "Representations of Peasant Women in Tunisian National Discourse (1930–1956)." Journal of Human Research and Studies – Tunisia, Issue 7, Tunisia, 2019.

3) Tarek Mohammadi, "The Path of Women's Liberation in Tunisia Before and After Independence Through Popular Poetry," Kan Historical Journal, Eighteenth Year, Issue Seventy, August 2025, p. 83.
4) Balrashed, Mohamed, "Zawiyas in Tunisia: A Study of Social Changes in the Tunisian Village," Al-It'haf Journal, Ninth Year, Issue (48), April 1994.
5) Marzouki, Hanan. "Popular Resistance and the Role of Women in Supporting Guerrilla Action During the Colonial Period." Journal of the History of the Maghreb – Tunisia, Issue 5, Tunisia, 2016.